وزير الخليفة الفاطمي

●

كان شيركوه قد استعد للحملة على مصر أحسن استعـــداد ، واختار رجاله واعوانه من الرجال المدربين والابطـال الاشداء ، واستصحب ابن اخيه صلاح الدين ، على كره منه هذه المرة ، وقـد بلغ عدد جنوده الفين من الفرسان وستة الاف من المرتزقة . وكان الغرض من الحملة في الظاهر نجدة الخليفـة العاضد ، ولكن قائدها كان قد اعتزم الاستيلاء على مصر مهما كلفه الامر . فلما عاد اموري من حيث أتى ، أقبل شيركوه فخيم بعسكره امام القـــاهرة ، وتوافد سكانها لتحيته وشكره على انقاذهم من الخطر الذي كان يهددهم ، وذهب شاور لاستقبال القائد المنقذ فيمن ذهب من الاهلين ، وتظاهر الرجلان بنسيان الماضي ، الا ان كلا منهما كان يضمر الحقد للاخر ويبيت له السوء . وقد فكر شاور بدعوة ضيفه واعوانه الى مأدبة يدس لهم فيها السم فيفتك بهم جميعاً ، كما فكر شيركوه بكيدة تذهب بخصمه ، وفي كتاب الروضتين ان الخليفة العاضد قد زاره في خيمته متنكراً واهاب به الى قتل شاور لانقاذ البـــلاد من جوره .

وفي ذات أصيل اقبل شاور لزيارة شيركوه ، فقيل له انه قد

توجه الى ضريح الامـــام الشافعي . فقال : نمضي اليه . فسايره صلاح الدين وبعض الامراء ، ثم نزعوه عن فرسه وكبلوه ، وارسلوا للخليفة فاخبروه بما صنعوا ، فامر بأن يقطع رأسه .

وما كاد يُقضى على شاور حتى استدعى الخليفة الفاطمي شيركوه الى قصره ، وخلع عليه خلعة الوزارة ، ولقبه بالملك المنصور أمير الجيوش ، فانتقل الى مقر شاور بدار الوزارة ، وقـــلد أعوانه المناصب العالية ، وتمت له بذلك السيطرة على مصر دون اي عناء .

بيد أن الحياة لم تفسح لشيركوه مجالاً للتمتع بالمجـــد الذي صار اليه ، اذ توفي في ٢٢ جمادى الثانية سنة ٥٦٤ (٢٣ اذار ١١٦٩) بعد تقلده منصب الوزارة ببضعة اسابيع . فخلفه على ذلك المنصب يوسف صلاح الدين ابن اخيه ومساعده الأول ، الذي رافق الحملة الشامية كارهاً لزهده في الاستيلاء على مصر كما قال بعض المؤرخين ، او لايثاره الدعة والراحـــة كما قال آخرون ، او لشدة مالاقى من العناء في حصار الاسكندرية في الحملة الثانية وهو الأرجح ، فاذا به يتولى الوزارة وهو بعدُ في الثانية والثلاثين من عمره ، ولكنه قد تدرب وهو في تلك السن الباكرة على الحروب ، وأفـــاد من دروس الحياة ، واظهر من الكفاية والمقدرة ، ما جعله أهلاً لذلك المنصب ، وجعل الخليفة الفاطمي يختاره له دون غيره من امراء نور الدين ، رغم تسابقهم الى هذا المركز الخطير وعودة اكثرهم الى الشام احتجاجاً على اسناده الى صلاح الدين . الا ان ابن الاثـــير يقول : « وكان الذي حمل العاضد على اختياره ، ما كان يظنه فيه من الضعف لقلة رجاله وضعف عسكره ، فظن انه اذا ولاه يكون

مستضعفاً فيحكم عليه ولا يجسر على مخالفته » .

وكانت العادة قد جرت بان يطلق على الوزير لقب كبير يعرف به ، فسمي الوزير الجديد « الملك الناصر ابو المظفر صلاح الدنيا والدين يوسف بن ايوب » .وفي صبح الاعشى ان العاضد كتب اليه في طغرة العهد بالوزارة : « هذا عهد امير المؤمنين اليك ، وحجته عند الله عليك ، فاوف بعهدك ، وخذ كتاب امير المؤمنين بيمينك . ولمن مضى بجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم احسن اسوة ، ولمن بقي بقربنا أعظم سلوة . تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الارض ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين » .

تولى الوزير الشاب ذلك المنصب الذي تحيط به الفتن ويتطلع اليه كل امير على شيء من القوة والبأس ، على انه عبء ينهض به ورسالة يؤديها وليس متعة ولهواً ، وقد رأى بحكمته المشرقة وخلقه الرفيع ، ان خير ما يثبت به دعائم حكمه العدل بين الناس فعاملهم بما عرف به من كريم السجايا ونبيل الصفات ، ولم يتعرض للمذهب الشيعي الذي اعتنقوه في عهد الفاطميين وقد استمر نحواً من قرنين ، واكتفى بذكر اسم نور الدين زنكي على المنابر بعد اسم الخليفة الفاطمي . على ان احترام عقائد الناس شيعيين كانوا او سنيين ، ومسيحيين او مسلمين ، كان نزعة اصيلة في نفسه ، وسجية رفيعة من سجاياه ، فعرفت الطوائف المختلفة في عهده أقصى الحرية ، واحبه الاقباط محبة شديدة ، حتى ليذهب احمد زكي باشا الى انهم قد وضعوا صورته في كنائسهم ، ويستشهد على ذلك بادلة كثيرة منها ان الشاعر عبد المنعم الاندلسي زار مصر في ذلك

الحين فدهش لمـــا رآه من حب القبط لصلاح الدين فنظم قصيدة طويلة في هذا المعنى منها هذا البيت :

فيحطوا بأرجاء الهياكل صورة لك اعتقدوها كاعتقاد الأقانم

وقد رفع صلاح الدين المظالم عن المصريين ، وخفف اعبـــاء الضرائب التي كانت ترهقهم ، وأصدر بهـذا الصدد مرسوماً قرىء على المنابر يدل دلالة واضحة على الشدة التي كان يستعملها الولاة في جباية المكوس ، ومما جاء فيه قوله : « وخرج أمرنا بمسامحة اهـل القاهرة ومصر ، وجميع التجار المترددين اليهما والى ساحل المقسم (المقس) والمنية ، بابواب المكوس ، صادرها ووارداتها . فيرد التاجر ويسفر ، ويغيب عن ماله ويحضر ، ويقارض ويتجر ، براً وبحراً ، مركباً وظهراً ، سراً وجهراً ، لا يُخَلّ ما شده ، ولا يحاول ما عنده ، ولا يُكشف ما سَتَرَه ، ولا يُسأل عما أورده وأصدره ، ولا يستوقف في طريقه ، ولا يشرق بريقه ، ولا يؤخذ منه طعمه ، ولا يستباح له حرمه »

وقد اكسبت هذه السيرة السمحة العادلة صلاح الدين محبـــة الشعب وايثارهم اياه ، ولكنها لم تصرف عنه كيد الامراء الموتورين والقواد الطامعين الذين ما فتئوا منذ اللحظة الاولى يتآمرون على حياته ، كل منهم يريد ان يقصيه عن كرسي الحكم ليحل محله فيه . وما لبث مؤتمن الخلافة الخصي الاسود جوهر ان خرج بفكرة التخلص من الوزير الدخيل الى حيز العمل ، فكتب الى الفرنجـة بالزحف على مصر ، ووعـدهم بانهم ان وصلوا وخرج صلاح الدين اليهم ، قام بجموعه فضربه من خلف ، بينا تناجزه جيوشهم وجهـاً

لوجه ، وفي هذا القضاء الحتم . وقد وضع مؤتمن الخلافة هذا الكتاب داخل حذاء جديد وأعطاه الى احد رجاله لينطلق به الى ملكة الفرنجة ، فوقع الحذاء في يد رجل من اتباع صلاح الدين فاطلع على الرسالة وسلمها اليه ، فتجاهل الوزير الامر ولبث يتحين الفرص للايقاع بخصمه ، حتى خرج يوماً الى قصر له خارج القاهرة فارسل اليه من قتله . قال عماد الدين الكاتب: « فهاج السودان وثاروا ، وكانوا اكثر من خمسين الفاً ، وكانوا اذا قاموا على وزير قتلوه واجتاحوه واذلوه واستباحوه » فهب صلاح الدين يردهم عن قصره ، وعمد اخوته الى محلتهم المنصورة فاحرقوها ، فلما بلغهم النبأ تفرق شملهم وهرعوا الى تلك المحلة يتفقدون نساءهم واطفالهم ، فاخذ الملك الناصر عدداً كبيراً منهم فقتلهم ، وطارد اخوه شمس الدين طوران شاه من بقي منهم الى الصعيد ، فظل الوجه القبلي من مصر طوال ست سنوات مسرحاً لفتن متواصلة يديرها اعداء صلاح الدين من امراء الفاطميين ويذهب ضحيتها السودانيون الناقمون عليه .

ولم يكن مركز صلاح الدين من ناحية نور الدين زنكي بأقل اضطراباً وحرجاً مما كان عليه من ناحية الامراء الفاطميين . فقد كان الحاكم الشاب يريد الاستقلال بمصر ، وكان نور الدين يستشعر منه ذلك ويخشاه ، فيرسل اليه ان يغير خطبة الجمعة في المساجد ويجعلها باسم الخليفة العباسي بدل الخليفة الفاطمي ، لتكون له عليه سلطة شرعية واضحة ، فيستمهله في ذلك لانه لا يريد اغضاب المصريين ، ويؤكد له ان اسمه يُذكر على منابر مصر مقروناً

باسم الخليفة الفاطمي وتلك خطوة كبرى نحو هدفه ، فكان يأمن بذلك جانب نورالدين ، ويجمع في الوقت نفسه كلمة المصريين حوله ليكونوا عدّته في تحقيق الاحلام التي يريد .

وقد خدم الحظ صلاح الدين مرة اخرى ، بعد ان خدمه باحتلال مصر على اهون سبيل وموت عمه موطداً له اسباب حكمها ، اذ لم يكد يخمد ثورة السودانيين، ويتخذها مبرراً لابعاد الامراء المصريين عن مناصب الدولة واحلال قومه ورجال بيته محلهم ، وتعيين الخصي الابيض بهاء الدين قراقوش قيماً على القصر بدلا من المؤتمن القديم، حتى قام اموري ملك القدس وقد هاله ان يمتد ملك نورالدين الى مصر ، فاستنجد ببيزنطية التي تشاركه النقمة عليه ، وزحف بجيشه الى دمياط يريد احتلالها ، واذا بصلاح الدين يسبقه اليها بجنده ومعداته ، فيصدّه عنها ويهزمه هزيمة شنعاء ، ثم يصل الاسطول البيزنطي الى الشواطىء المصرية وقد عانى في الطريق اليها من المصاعب ما اضعف من قوته وساعد في القضاء عليه ، ويقول ستانلي لين بول : « ان زوبعة بحرية شديدة هبت فحطمت ما بقي من اسطول البيزنطيين فمات كل من كان عليها ، وطفت جثثهم على شواطىء البلاد التي كانوا قد جاؤوا لفتحها » .

وانما قلنا ان الحظ قد خدم صلاح الدين في هذه المرة ايضاً لان هذه الموقعة قد وطدت مركزه وعززت مكانته لدى المصريين ، اذ رأوه يخرج منها مكللاً بالظفر وقد ردّ خطر الفرنجة عن وطنهم ثم تعقبهم الى تخوم مملكتهم ، واستولى على مدينة العقبة مفتاح البحر الاحمر وطريق الحجاج المسلمين الى مكة ، بحيث ايقنوا انهم سيكونون

آمنين على انفسهم وارزاقهم في عهد هذا الوزير الباسل لقدرته على صد العدوان عن بلادهم بحكمته وشجاعته الفريدتين .

اراد صلاح الدين ان يتقدم بعد ذلك خطوة جديدة نحو تثبيت حكمه في مصر ، ونحو تحقيق الاحلام التي اخذت تراوده في توحيد بلاد العرب وجمع كلمة المسلمين ، فأخذ يعمل على تحويل النـــاس شيئاً فشيئاً عن المذهب الشيعي الى مذهبه ،وهو مذهب السنة . قال ابن الاثير : « وكان بمصر دار للشحنة تسمى دار المعونة يحبس فيها من يراد حبسه ، فهدمها صلاح الدين وبناها مدرسة للشافعية ايضاً ، وعزل القضاة المصريين وكانوا شيعة ، واقام قاضياً شافعياً في مصر فاستناب القضاة الشافعيين في جميع البلاد » ثم ابتنى المدرسة القمحية وجعلها خاصة بالمالكية ، وانشأ مدرسة للحنفيـــة في دار الوزير البطائحي .

وكان نورالدين ما يفتأ يلحّ عليه بتغيير خطبة الجمعة وجعلها باسم الخليفة العباسي ، بل كانت بلاد العرب التي تطمع باستعـــادة الوحدة القوية التي كانت لها في ظل الحكم العربي تتطلع كلها الى ذلك الامر معلقة عليه آمالا كباراً ، ولكن صلاح الدين لم يكن يريد ان يتعجل الامور قبل اوانها ، وكان يبغي ابقاء العاضد حليفاً له اذا اختلف ونورالدين ،فظل يرجىء ذلك من شهر الى شهر ومن يوم الى آخر ، حتى مرض الخليفة الفاطمي واشرف على الموت ، فجمع الناصر قومه واستشارهم في الأمر كشأنه كلما ازمع على امر جلل ، فنصحوه بالاقدام عليه ، وتعهد عالم منهم ان يقوم به بنفسه ، وبادر لفوره فذهب الى المسجد وخطب للخليفة العباسي المستضيء

بامر الله وكان قد خلف أباه المستنجد بالله منذ ستة شهور ، وكان ذلك في اول جمعة من محرم سنة ٥٦٧ (١٠ ايلول سنة ١١٧١) . وقال ابن الاثير ان الناس قد قابلوا هذا الحدث الخطير بهدوء عجيب « ولم ينتطح فيه عنزان » !

وكان مرض العاضد يشتد ، فأمر صلاح الدين اتباعه ان يكتموا الامر عنه قائلا لهم : « ان عوفي فهو يعلم ، وان توفي فلا ينبغي ان نفجعه بمثل هـــذه الحادثة قبل موته » . وفي بعض الروايات ان العاضـــد علم بالخطبة لغيره فاغتم ومات . ومهما يكن من امر ، فان الخليفة لم يبطىء ان مات في الشهر عينه ، وانقرضت بموته الدولة الفاطمية التي تركت آثاراً عظمى في الحضارة الاسلامية واصبح صلاح الدين الايوبي السيد المطلق في مصر .